المعلم الإلزامى فى ميدان الحياة الاجتماعية

للأستاذ محمد أبو بكر ابراهيم
المفتش بوزارة المعارف

من الناس من تواتيه الفرص فلا يفترصها ، وتمد له الحياة بخاجها فلا يكاد يأبه لها . وتتجلى أمام ناظريه الظواهر المختلفة السياسية والاجتماعية والطبيعية فلا يلتفت إليها . يؤثر العزلة والانفراد ، وينقبض عن المخالطة والاشتراك : همه نفسه ، وشغله ذاته ، ولا شيء سوى ذلك . ومن كان هـذا شأنه ، كان — ولا ريب — مريضا بداء الأثرة ، وحب الذات ، والمنفعة الشخصية الخاصة . ويستحوذ هذا الداء على مشاعره وعواطفه ، ويتمكن منه فى أعز ما لديه ، وأنفس ما أنعم الله به عليه ؛ فيضيق صـدره مثل ما ضاق أفقه ، وتبتئس نفسه مثل ما ابتأست أيامه ؛ ويرى المجتمع عدوا ومغرما ، فيخاف أن يندمج فيه ، أو أن تزل قدمه فى مهاويه . ويكون جزاؤه الحرمان من الفضائل الاجتماعية والدينية التى لا تتحقق إلا فى معترك الحياة .

ثم كيف تكون الحياة الاجتماعية لو تقطعت بين الناس أواصر التراحم ، وقبض كل يده عن عشيرته وبنى ملته ؟ إنها تكون أشبه شيء بميادين الوغى ، وساحات المعارك والقتال . يسود فيها التهافت والتكالب على جمع المـال طيبه وخبيثه ، وتضيع فيها الحقوق والواجبات وتقفر من نعم المعاضدة والمواصلة ، والمؤانسة والمجاملة : فلا تناصر ، ولا تعاون ، ولا إخاء ، ولا وفاء ، ولا مروءة ولا نجدة . وهذه هى الفتنة القاتلة التى لا تثمر سوى العدوان والخذلان ، والندامة والخسران .

فأول خطوة فى سبيل سعادة المعلم الالزامى خروجه من سجن ذاته ، واهتمامه بالحيـاة العامة الاجتماعية ، وتعاونه مع القرية على المهام المتنوعة ، وجهاده المستمر لإصلاح البيئة السيئة ، ومعالجة النقائص معالجة الطبيب الحاذق ؛ لكى يكون خليقا بمنصبه ، وجديرا بأن يتولى — بحق — قيادة التعليم والتربية فى بيئته .

وعليه واجبات ، لو قضى عمره فيها ، لوقف دون إتمامها جميعا ، لأنه عضو فى المجتمع ولأنه مكلف بإصلاح نفسه ، وتربية أبناء مدرسته ، وإنهاض أهل قريته ، وإفادة من تصل بهم من بنى وطنه .

ودون الوصول الى هـذه الغايات أشواط بعيدة ، لايقطعها إلا المصلحون النافعون توصلا الى الحياة الكاملة السعيدة .فالمعلم الذى يقتصر على إعداد المادة العلمية لتلاميذه ، و يقف عند حدود الحصص المقررة عليه فى جدوله ، يعدّ مقصرا فى حق تلاميذه أنفسهم وفى حق بيئته وأمته ، ولا يسمى مربيا .

ومعلم القرية يجب أن يكون مربيا يأخذ الأطفال بجميل العادات ، وحميد الخصال ، ويحيى فى نفوسهم النزعة الدينية ، ويقوى فيهم العقائد الصحيحة الروحية .وفوق ذلك يكون قدوة صالحة يحارب الرذائل ، ويعين على مكارم الأخلاق ، وينشر الفضائل فى قومه ، متذرعا بالوسائل التى تهيئه لأن يكون إماما مرشدا ، وأمينا ناصحا ، وحكيما مخلصا لأهله وعشيرته وبنى بلدته .

وإن أول واجب على معلم القرية أن يدرس نفسية الجماعات ليعرف أن لها تفكيرا ، وشعورا ، ووجدانا ، وإرادة . وأن لها حماسة ، وتعصبا ، ومزاجا ، وأن التأثير فيها إنما يكون بالاستمالة والاستهواء ، والترغيب والتشويق ، واللين والحلم ، وسماحة الخلق ، حتى تلتف حوله ، وتسمع قوله وتصغى إلى إرشاده ونصائحه .

ومن جهل من المعلمين عقلية الجماهير فأساء إلى شعورهم : بتجهيلهم ، أو بتعنيفهم ، أو بالتعالى عليهم ، أو بسبهم ، أو بإيذائهم ، فإنه يكون منبوذا منهم على السواء ، إذ تهيج أعصابهم فيركبون متن الشطط فى معاداته ، ومعاندته ، والتنكر له .

لذا كان من أوجب الواجبات على المعلم أن يتخذ أمثل الطرق لإصلاح النقص فى أهل القرية ، وأن يقوم مافيهم من اعوجاج ، بملاطفتهم ، والتنزل إلى مافوق مستواهم بقليل ، وإرشادهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومعاملتهم باللين والرفق ، والإخلاص والصدق .وأن يكون ذا شخصية قوية صالحة ليوحى إليهم بتقليده فى أقواله ، وأفعاله ، وسائر أحواله .فإن خير الإرشاد ماجاء عن طريق الإيحاء والاستهواء ، وصدر عن مثال [illegible] بالمحاكاة والتقليد ، لا مايجىء بطريق الأمر والنهى .

أما المعلم المتعالى عليهم ، المبالغ فى الإعجاب بزيه و[illegible]ـيباجه ، الفخور بمنصبه وعلمه ، فإنه يثير فى نفوسهم ما كمن فيها من الحسد له ، والحقد عليه ، فتشتد ثورتهم ضده ، ويتألبون عليه ، وينصرفون هم وأبناؤهم عنه ، وبئس المصير .

أريد من هذا أن يكون مثل المعلم فى إصلاح قريته مثل البستانى الماهر الذى يغرس فى بستانه أنواع الأشجار الباسقة ، والرياحين الغضة ، والأزهار العطرة ثم يجعل بابه مفتوحا للمتنزهين والنظارة من الجمهور . فإنهم يحبون أن يستمتعوا برؤية مافيه من جمال ساحر فيندفعون إليه بشوق ورغبة وينتفعون ويغتبطون .

وكذلك المعلم يكون بعلمه وخلقه وأدبه أسوة حسنة لهم فيأتمون به ، ويسيرون على طريقته ، وينسجون على منواله ، من غير أن يأمرهم باتباعه ، أو يسوقهم إلى الاقتداء به ، لأن مافيه من قوة مغناطيسية قد جذبتهم وشاقتهم واستمالتهم إليه . وهنا يكون النجاح فى تأدية رسالته .

فمعلم القرية — على هذا الاعتبار — يمكن أن يؤدى أجل الخدمات القومية ، متى أحس إحساسا عميقا بالمسئولية الكبيرة الملقاة على عاتقه إزاء الواجبات الانسانية التى يجب أن يقوم بها طوعا واختيارا وحبا لها فى ذاتها ، لاطمعا فى مثوبة ، ولا خوفا من عقوبة ولكن لأنها فضيلة وجمال .

وأهم مايبدأ به عمله : القيام بالإمامة والوعظ والإرشاد ليمد أهل قريته بما آتاه الله من علم وفضل ، وله فى الكتب الدينية ، وقصص الأنبياء ، وسيرة سيد المرسلين ، وأنباء الصحابة والتابعين مورد لاينضب ماؤه ولا ينفد معينه ، فيقفهم على كثير من أصول دينهم ، ويذكرهم بآياته وعقائده وتعاليمه .

ومهمة المصلح شاقة وعظيمة ، لأنها تتطلب جهادا وتضحية ، وتستلزم شدة الإيمان بفكرة الإصلاح التى ينشرها ويؤيدها بالقول والعمل . وأول مايواجهه — بادئ الأمر — تطهير البلاد مما أصابها من لوثات خلقية ، أو آفات اجتماعية ، أو أمراض أخرى مختلفة فيعمل جهد طاقته على إزالة الأسباب والمؤثرات والعوامل التى أنتجت هذه النكبات ، فالمعلم المصلح يعمل لمحو الأمية وإخراج قومه من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، وتبصرتهم بالمبادئ الأولية الصحية ليتقوا ويلات الأمراض ، والوقوع فى براثن الجهالة والأدواء ، والوقاية خير من العلاج ، كما يقول الشاعر :

توق الداء خير من تصد لأيسره ولو أمن الطبيب

مع إسداء النصيحة لمرضاهم بالتردد على المشافى ، والمسارعة إلى الأطباء قبل أن يتمكن منهم الداء ويصير مستعصيا علاجه .

يمكنه أن يعمل على نشر النظام ، واستتباب الأمن ، فيعين رجال الشرطة وأولى الأمر على تأدية مهامهم . بأن يساعد على رد الأمانات لأهلها ، وإيصال الحقوق لمستحقيها ، والوساطة فى الصلح بين المتخاصمين ، وسل السخائم من الصدور ، وإزالة الأحقاد من النفوس ، وإحياء معالم الشهادة الحقة ، وقول الصدق ، واحترام القوانين . وأن يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر عملا بقوله جل شأنه " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " .

وإن المعلم ليضع نفسه فى مأزق حرج إن تحيز لفئة فى القرية معادية لفئة أخرى فيها ، لأنه بذلك يزيد ثائرة غضبهم و يثير الإحن والبغضاء فى قلوبهم فيجعلهم أعداء متخاصمين متعصبين تعصب الجاهلية الأولى مما تضطرب به حالهم ، ثم هو لا ينجو من أذاهم . والعاقل من لا يزج نفسه فى مضيق لا يقدر على الخروج منه .

ولكى يكون أسوة حسنة لهم يجب أن يجعل مقامه فى القرية التى بها مدرسته لياتموا به فى كل شىء ، وليكون بيته نموذجا طيبا للنظام والنظافة والترتيب ، فيقتدى به الأهلون ، و يحاكونه ، ويحاولون أن يرفعوا بيوتهم إلى مستوى قريب من مستوى بيته فى استيفاء الشرائط الصحية الضرورية .

محمد أبو بكر ابراهيم

كتب أمير المؤمنين على بن أبى طالب إلى عامله على مصر :

" أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك ، فإنك إن لم تفعل تظلم ، ومن ظلم عباد الله كان خصمه دون عباده ، ومن خاصمه الله أدحض حجته وكان الله حربا عليه حتى ينزع أو يتوب . وليس شىء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته ، من إقامة على ظلم ، فان الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد .

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها فى الحق وأعمها فى العدل وأجمعها لراحة الرعية . فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة ، و إن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة . وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤونة فى الرخاء وأقل معونة له فى البلاء وأكره للإنصاف وأسأل بالإلحاف من أهل الخاصة . و إنما عماد الدين و جماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة ، فليكن صفوك لهم وميلك إليهم " .